اغتراب البطل
في ثلاثية نجيب محفوظ

اسم الباحث:

د. عبدالتواب محمود عبدالتواب عبد اللطيف

ملخص بحث

اغتــراب البطـل في ثـلاثيّــة نجيــب محفوظ

يُعدّ نجيب محفوظ أحد أهم كتاب الرواية العربية الحديثة وتعتبر الثلاثيــة (بـين القصـيرين ١٩٥٦ – قصـر الشـوق ١٩٥٧ – السـكرية ١٩٥٧) من أفضل الروايات العربية في تاريخ الأدب العربي، وتقدم الثلاثية كشف أزمات الرجل الشرقي في واقع نفسه وواقع مجتمعه وتؤكد على المفارقات الشديدة التي ولَّدَتْ ظاهرة الاغتراب لدى الفرد والمجتمع، وبرزت هذه الظاهرة بوضوح عند بطل الثلاثية "كمال عبد الجواد" الذي نشأ في جيل ما بعد ثورة ١٩١٩م في ظل جمود الحركة الوطنية، وتحولها من معركة ثورية شعبية إلى قضية سياسية.

في تلك الفترة كانت الثورة قد تحولت إلى صراع سياسي بين القصر والوفد والاستعمار، أو صراع حزبي بين أحزاب الأقليّة وحزب الأغلبية، وقد نشأ هذ الجيل أيضًا في ظل تغيير جوهري في العالم، وكان الجيل الجديد أكثر قدرة من أي جيل قبله على النفاذ إلى العالم الخارجي والتأثر به والتفاعل معه، وهذه الظروف هى التي كانت تُحيط ببطل الثلاثية «كمال عبد الجوَّاد»، وعكست أزمة اغترابه، وأزمة اغتراب جيل حمل عبء أمانة مواجهة الحضارة الأوروبيّة المنتصرة والمستعمرة وكان عليه أن يزرع ما تعلم في الأرض المصرية حتى يُعيد بناء حضارة الإنسان المصري؛ مما يخلق تواصلًا بيننا وبينه؛ لأننا نشعر أن الأزمة الفكرية والوجدانية بعضٌ من بليّتنا وكمال هنا تأتي بطولته بالمعنى التقدّمي الثوري في تمهيده وتبشيره بقيم الغد.

وجاء البحث في مقدمة، وأربع نقاط، بدأت الحديث عن **الاغتراب العاطفي للبطل في إطار الوعيّ الطبقي**، ثم انتقلت إلى الحديث عن **الاغتراب ولحظة الإدراك والتحوّل**، **ثم بيّنت الموقف من الحياة وغربة البطل الأيديولوجية**، وتحدثت في النقطة الأخيرة عن **البطل بين التمرّد الميتافيزيقي والإيمان بالعلم**، ثم أنهيت البحث بالخاتمة والهوامش التي تحتوي على مراجع البحث.

د. عبد التواب محمود عبد التواب عبد اللطيف

SUMMARY

THE ESTRANGEMENT OF THE PROTAGONIST IN THE MAHFOUZ'S TRILOGY

Naguib Mahfouz is considered as one of the leading figures in the history of modern Arabic novel. The trilogy (Palace Walk 1956/ Palace of Desire 1957 / Sugar Street 1957)ranks as one of the best Arabic novels in the history of Arabic literature. The trilogy represents the dilemma of the eastern man in the context of his society. It highlights the paradoxes that generated the estrangement phenomenon in individuals and the society at large. It is clearly delineatedin the character of the protagonist *Kamal Abdel-Gawad* who belongs to the generation of 1919 revolution, at a time of stagnation of the national movement when it turned from a popular revolutionary battle to a political issue.

The revolution in this period turned into a political contest between the ruling elite, Al-*WafdParty* and colonization. It was a partisan conflict. The same generation witnessed a vital global shift. The younger generation was more ready to interact with the outside world and to be influenced by it. Such circumstances were the setting of the protagonist, which reflected the dilemma of estrangement of a generation which confronted the triumphant European civilization. The protagonist had to restructure the Egyptian civilization. It is clear that the intellectual and emotional dilemma lies at the heart of our problems. The protagonist reflects the progressive and revolutionary aspect that heralds the future values.

The paper is divided into an introduction and four sections. Thefirst is the emotional estrangement of the protagonist in the

frame of class consciousness. Then, the second section tackles estrangement and the moment of recognition and conversion. After that, I demonstrated his attitudes towards life and ideological estrangement. The concluding point underlies the protagonist between metaphysical rebellion and the belief in science. Finally, there are the conclusion and the margins which include all the references.

مُقدمة:

تطـورت الروايــة العربيــة خــلال القـرن العشـرين تطـورًا ملحوظًـا، واستقطبت اهتمـام القراء والنقـاد علـى اختـلاف مشـاربهم واتجاهـاتهم، ولـم تـزدد مكانتهـا إلا رسـوخًا لا سـيما فـي النصـف الثـاني مـن أواخـر القـرن الماضـي، كمـا تنوعت أسـاليب وتقنيـات كتابتهـا واختلفت أشكالها وتعددت أنواعها وتياراتها وصيغ تقديمها حتـى صـارت تستأهل نعتها بـديوان العرب الجديد على غرار الشعر الذي ظلّ ديوان العرب طيلة قرون عديدة.

ومـا كـان للروايـة أن تحتـل هـذه المكانـة مـن الاهتمـام داخـل حقـل الإبداع الأدبي والفني والثقافة العربية المعاصرة بوجـه عام، لـولا الإنجـازات المهمـة التـي حققتهـا علـى مسـتويات عـدّة، وتـرتبط ارتباطًـا وثيقًـا بنـبض الإيقاع الداخلي للحياة العربيـة فـي أبسط صورها وأعقد تجلياتها، فحملت بذلك أحاسيس الإنسان العربي وانفعالاتـه بقضـاياه اليوميـة والمصيريـة فـي مجالات السياسة والاجتماع، بكل ذلك حققت الرواية ارتباطًـا عميقًـا بمعانـاة الإنسـان ومكابداتـه وتطلعاتـه، وهـي تتجسـد مـن خـلال علاقاتـه بالسُـلُطَات المختلفـة التـي تكبـل طاقاتـه، وتتكالـب عليـه، وتشـلّ تطلعاتـه إلـى تحقيـق الحياة الفضلى.

لقد نهضت الرواية العربية في تاريخها القصير مقارنة مع الشعر ذي التاريخ الطويل سواءً على مستوى الموضوعات التـي عالجتها أو التقنيـات والأساليب التي وظفتها في التعبير، لقد هيأ لها هذا التطور المتحقق فـي مسيرتها القصيرة موئلًا مكنها وجعلها بذلك تقدم أشكالًا تعبيريـة أخرى، تعكـس همـس الشـارع العربـي وفوضـاه وقلقـه العـارم ومختلـف أحاسيسـه وطموحاته.

لم يكن من الممكن أن تنفرد الرواية العربية بهذه السمات بالمقارنة مع غيرها من الأشكال التعبيرية لولا جماليتها التعبيرية وأساليبها الفنية التي ظلّت تتطور مع الصيرورة والتقنيات التي استخدمتها في تجديد عوالمها وهي تسعى إلى مواكبة تطور المجتمع العربي وتحولاته.

لكل هذه الاعتبارات ودون الغض من أهمية المعاني والدلالات أو الحط من قيمتها للتلازم الحاصل بينها وبين الأشكال، نرى أن لتقنيات الرواية وتنوع أساليب تقديمها مادتها دورًا كبيرًا في المكانة التي صارت تحتلها في واقعنا الأدبي.

ويُعدّ نجيب محفوظ أحد أهم كتاب الرواية العربية الحديثة وتُعدُّ الثلاثية (بين القصرين ١٩٥٦ – قصر الشوق ١٩٥٧ – السكرية ١٩٥٧) من أفضل الروايات العربية في تاريخ الأدب العربي حسب اتحاد كتاب العرب[١]، وتقدم الثلاثية كشف أزمات الرجل الشرقي في واقع نفسه وواقع مجتمعه وتؤكد على المفارقات الشديدة التي ولَّدَتْ ظاهرة الاغتراب لدى الفرد والمجتمع، وبرزت هذه الظاهرة بوضوح عند بطل الثلاثية "كمال عبد الجواد" الذي نشأ في جيل ما بعد ثورة ١٩١٩م في ظل جمود الحركة الوطنية، وتحولها من معركة ثورية شعبية إلى قضية سياسية.

في تلك الفترة كانت الثورة قد تحولت إلى صراع سياسي بين القصر والوفد والاستعمار أو صراع حزبي بين أحزاب الأقليّة وحزب الأغلبية، وقد نشأ هذ الجيل أيضًا في ظل تغيير جوهري في العالم، فقد اشتدّ الصراع الدولي، وأصبح صراعًا بين الفاشية والرأسمالية والشيوعية، وكان الجيل الجديد أكثر قدرة من أي جيل قبله على النفاذ إلى العالم الخارجي والتأثر به والتفاعل معه.

وتوزع الجيل الجديد في مصر بين أحزاب جديدة واتجاهات جديدة، تزيد بعث مجد الإسلام أو مجد الإمبراطورية العربية، وأحزاب فاشستية تريد إقامة فاشستية مصرية كما نجح هتلر وموسيليني، وأحزاب شيوعية تريد نقل النظرية الشيوعية إلى مصر، واتسمت هذه الأحزاب بضعفها النظري والأيديولوجي، فهي لم تستطع أن تلائم نقلته من الخارج إلى واقع هذه البلاد، ولم تستطع أن ترفع وتجدد ما استخلص من الماضي إلى مستوى العصر وروح العصر، وتحول الخلاف النظري والسياسي بين هذه الأحزاب الجديدة إلى حرب دائمة لا تهدأ، وتردت المسألة الوطنية في هاوية جديدة.

هذه هي السمات العامة التي كانت تحيط ببطل الثلاثية "كمال عبد الجواد" وعكست أزمة اغترابه وأزمة اغتراب جيل حمل عبء أمانة مواجهة الحضارة الأوروبية المنتصرة والمستعمرة، وكان عليه أن يزرع ما تعلم في الأرض المصرية حتى يعيد بناء حضارة الإنسان المصري.

الاغتراب العاطفي للبطل في إطار الوعي الطبقي:

إن مشكلة "كمال عبد الجواد" تعد في جوهرها تجسيدًا حيًّا نابضًا لمشكلة جيل مأزوم هذا الجيل الذي جاء ثمرة لمجتمع متخلف، وكان عليه أن يحمل أمانة التغيير، فتذبذبت خطاه بين العبث وضرورة الفعل وبين النظر والعمل؛ مما أحدث لديه اغترابًا شديدًا يقول كمال وهو يناجي نفسه: «لم أعد من سكان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرباء"[٢].

هذا الإحساس المؤلم الذي يجعل البطل غريبًا في مجتمعه، هذه المشكلة واجهت الكثيرين من المصريين المثقفين الذين استقبلوا شبابهم بعد ثورة ١٩١٩م، وهم حيارى أين يجدون المثل الأعلى الذي يخلف ما

تهدم من مثل أسلافهم العليا[٣] لم يكن كمال يمثل نفسه بل يمثل جيلًا من المثقفين وعى رسالته وحدد دوره، رسم لنفسه بداية الطريق، ولكن عوامل كثيرة قد عوقت خطوات هذا الجيل؛ لأنها كانت أضخم من قدرته النضالية على تغيير الأوضاع.

والأزمة العاطفية التي عصفت بقلب كمال وتركته حطامًا هى -على الأرجح- التي غيرت من نظرته لذاته وللعالم الخارجي يقول نجيب محفوظ: «إني أعتقد أن كمال عبد الجواد الذي يلتمس مبررات عقلية ما هو إلا صدى لمشكلته الاجتماعية، لقد كانت مثاليته نابعة من حبه، ثم كان انهيار عقائده، وكان ترديه في الشك مترتبًا على فشل ذلك الحب»[٤]، ونُلاحظ أن الصراع العاطفي والشك الفلسفي الذي اكتوى بناره كمال كانت الظروف الاجتماعية والبيئية التي كان كمال ثمرة لها سببًا رئيسًا في ذلك، إذ توطدت صلات الصداقة بينه وبين حسين شداد أحد رفاقه في المدرسة الثانوية، وهو من أسرة ثريّة تعيش على الأسلوب الأوروبي الذي لا يعرف التحريم الديني، فيرى كمال في أخت صديقه وزميله عالمًا جديدًا يختلف كل الاختلاف عن عالم أسرته، يرى فيها نموذجًا للمستوى المعيشي الرفيع والجمال الأرستقراطي، والثقافة الفرنسية كصدى لافتقار بيئته، ومن ثم تفتح قلبه على طراز جديد من العواطف والانفعالات يغاير حياة الحي العتيق ورفاقه أمثال "فؤاد الحمزاوي".

وهذا السلوك يختلف كل الاختلاف عن نمط حياته الدينية التي نشأ عليها، مما أحدث في حياته اغترابًا حقيقيًا عن أخلاقيات الإسلام ومبادئه وتقاليده الأصيلة.

وكمال في هذا الوقت، شابّ مسلم لم تفسد عقيدته الدينية بعد؛ ولذا فقد عافت نفسه تلك العلاقات الدنيئة التي كانت تتم خلسة مع فتيات مبتذلات في أقبية الحي وأفنية البيوت المهجورة، لكن لم يلبث أن انبثق النور في قلبه، هنالك وسعه أن يحب وأن يصلي معًا.

ويمثل آل شداد في الثلاثية الأرستقراطية المصرية فوالد حسين شداد كان من معيّة الخديوي السابق عباس حلمي وظل على ولائه له تعرف كمال إلى أصدقائه الجدد، فوجد بيئة مغايرة لبيئة سكان بين القصرين، وبهره أسلوب معيشتهم، وذهابهم إلى المصيف في الإسكندرية أو رأس البر حيث يبقى هو يصلى نار القاهرة، وكان يعجبه خروج الأبوين معًا إلى المَنَازِهِ والأصدقاء.

وعقل كمال يُقارن بين هذا الأسلوب من الحياة وبين أسرته، أين الأرستقراطية من أمه "أمينة" التي لا تعدو في نظر أبيه جارية؟ تناديه "يا سيدي" تجسيمًا للعبودية وتأكيدًا لسلطته، ويبدو ذلك واضحًا في المشهد الذي نرى فيه السيد أحمد عبد الجواد يسافر إلى بورسعيد في مهمة تجارية فتتجاوب رغبة الأسرة في الانطلاق وخرجت الأم لزيارة الحسين، فماذا كانت النتيجة؟

لقد حكم عليها بالنفي إلى منزل أمها لم ينس كمال هذا الموقف وهو صبي، عندما توسل إلى أبيه أن يعفو عن أمه «رجَّع نينة الله يخليك، وأطلق ساقيه للريح»(٥) ومحبوبته "عايدة" إنها تمر بأصدقاء أخيها حسين فتهدي السلام في رقة وبساطة وفي براءة من تلك الحوائل التقليدية التي تفصل فصلًا حاسمًا بين الجنسين أين هذا من أخته "عائشة"؟ ألم يرفض أبوه الضابط الذي تقدم لخطبتها؟ رفض خشية أن يقوم عند البعض ظن

عن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علما بزواجه منها. «لا أحب، لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدي أن دافعه الأول إليّ منها هو رغبته الخاصة في مصاهرتي أنا .. أنا .. أنا»[٦].

وهذا يفصح عن مدى التململ -الذي يقترب من التمرد- الذي تعانيه أسرة السيد أحمد عبد الجواد "ويشي ذلك بالمحاولات الأولى لنساء البورجوازية الصغيرة للتمرد على الوضع الذي كان يجعل من البيت سجنًا لهن"[٧]، وفهمي شقيقه ومثله الأعلى ماذا حدث له عندما هفا قلبه لحب مريم "قولي له أن يتأدب ويستحي ويلزم حدوده، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه" لقد رأى السيد في طلب فهمي نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصور أن تتسرب العواطف إلى بنيان البيت الذي يحرص على أن يشب في جوٍ من النقاء الصارم والطهارة المتقشفة[٨].

ولعل هذا السلوك الأخلاقي المتزمت من جانب السيد أحمد يكشف عن طبيعة الطبقة البورجوازية والنسج النفسي لها ممثلًا في حرص السيد أحمد على مظهر الرجل الحازم المتدين الذي يبدو به أمام ذويه، رغم وجود هذا الجانب الخفي الماجن في حياته شأنه شأن البورجوازية التي تحرص على المظهر وإن خالف الباطن، هذه الطبقة التي عبّرت عنها هذه الشخصية بوصفها رمزًا للتناقضات والازدواجية في مواقفها في الحياة "ولعل هناك صلة نفسية بين جو المحافظة الشديدة الذي يحرص عليه في بيته والتحرر الأخلاقي الخارج باعتبار أن أحدهما ردّ فعل نفسي للآخر"[٩] هذا التزمت

والكبت الذي يثقل أنفاس كمال من استبداد الأب ليقع في استبداد "الحب" والمحبوب "عايدة".

يخرج كمال في نزهة إلى الهرم في صحبة صديقه حسين شداد وأخته عايدة وأخته الصغرى بدور ويشي حديث كمال ومناجاته لذاته باغترابه الاجتماعي، فهو وإن كان قد شعر بأنه غريب عن أسرته فكرًا ووجدانًا، فهو هنا يواجه الغربة الطبقية، ويشعر بالفواصل الاجتماعية، ويقول له حسين ضاحكًا وهو يحاوره:

- إنك تجد دائمًا وراء الأمور إما الله، وإما سعد زغلول.
- أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول.
- ولكن دأبك على ذكره يضفي عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال الدين (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حي الدين؟!

أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن تشاركه عايدة في سخريته؟ ترى ما رأيهما في الحي القديم؟ وبأي عين تنظر العباسية إلى بين القصرين والنحاسين؟ هل مسَّك الخجل؟ مهلًا إن حسين لا يكاد يبدي أي اهتمام بالدين، والمعبودة فيما يبدو أقلّ اهتمامًا منه(١٠).

والأسلوب يحمل سخرية وتهكمًا من الدين أو ممن يتمسكون به، ونجيب محفوظ في كثير من رواياته كان يستخدم هذا الأسلوب على لسان شخصيات رواياته يبث من خلالها أفكاره الساخرة من الدين.

وعند تناولهم الطعام بدا الطعام الذي جاء به -في ناظريه على الأقل- عاطلًا من حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتألم كمال عندما عرف أن عايدة وحسين يشربان البيّرة ويأكلان لحم الخنزير، ولم يستطع

كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعايدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثل في عيني كمال الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها، أما عايدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب في طبيعتها الملائكية، سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر في المضغ، ومضى هذا كله يسيرًا هيّنًا لا أثر للتكلف أو القلق فيه(١١).

ويفصح هذا المشهد عن اختلاف أسلوب الحياة بين كمال رمز البورجوازية التجارية الصغيرة، والذي نبت من صلب البيئة الشعبية المصرية وبين عائلة آل شداد الأرستقراطية والاستجابة السلوكية للموقف الذي واجه كمال تؤكد غربته بينهم، وكمال هنا يسجل مثلبة من مثالب البورجوازية الصغيرة، وهي أنها في محاولتها التطلع إلى أعلى، تُفني ذاتها في الوسط الجديد، ويبهرها بريق الحياة التي تنشدها.

وعندما صارحه حسن سليم بحب عايدة له آمن قلبه بأنه خسر الدنيا وعاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط، وبدت الحياة في ثوب حداد "ولكن الحب الذي ينّور قلبه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوّقه، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته في السماء، حيث لا فوارق مصطنعة، ولا رأس كبير ولا أنف غليظ في السماء، ستكون عايدة لي وحدي بحكم قوانين السماء"(١٢).

وأثناء المشادة الكلامية التي نشبت بين حسن سليم وكمال، وهما المتنافسان حول عايدة صاح حسن بوجه ممتقع فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار هنا "عاد ثائرًا هائجًا جريحًا يقطع

الطريق وباطنه يستشعر بالألم، طعن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فماذا بقي له في الدنيا؟!"(١٣).

وعايدة هل كان خروجها من حياته إلا كخروج العمود الفقري من الجسم الإنساني يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة أين تذهب ليالي يناير الطوال وهو دافن في الوسادة عينيه الدامعتين إنه يدعو من الأعماق "اللهم قل لهذا الحب كن رمادًا كما قلت لنار إبراهيم كوني بردًا وسلامًا "وتمنى لو كان للحب مركز معروف في الكائن البشري لعله يبتره كما يبتر العضو الثائر بالجراحة؟ وتطلع إلى ما قبل الحب من الماضي بلهفة، كما تطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة، أجل لم يتصوّر شخصًا هو أشبه بحالة من السجن غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرق أمام الزمان من أغلال الحب الأثيرية"(١٤).

وفي يوم عقد القران يذهب كمال فيجد نفسه منزويًا مهملًا لا يقدمه أحد إلى نجوم السياسة الذين كان يتوق إلى التعرف بهم منذ زمن.

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة ...

"أتيح لي أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبي من أمثال سليم بك وحسين شداد بك، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق الاهتمام غير أن كمال يمضي في مناجاته الداخلية أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر الصغير ولَمْ تتركني المحبوبة وتتزوج منه؟ أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر"(١٥).

"وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لهث، ثم سمع إسماعيل يهنئ فهنأ بدوره، كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شيء

قد انتهى شعر وهو يتناول العلبة الفاخرة لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به في ذلك اليوم فقد وعدته بأن محبوبته ستترك وراءها أثرًا خالدًا كحبها وأن هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزًا لماضٍ قريب وحلم سعيد وفتنة سامية رائعة ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر، تآمر عليه القدر، وقانون الوراثة ونظام الطبقات، وعايدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها، وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعه وجرحه ينزف فلا يظفر بآسٍ ... لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذًا سهلًا، أو يرضى فيها بالقريب، أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء"(١٦).

ويناجي نفسه: غدًا يسافران إلى بروكسل، وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزاء من يتطلع إلى السماء ستردد بصرك بين أركان المدينة حائرًا ولن تبرأ عيناك من لوعة الشوق، عايدة وحسين في أوروبا!، إنسان يفتقد في ساعة حبيبه وصديقه، تفتقد روحه معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده، في الحي العتيق تعيش وحيدًا مهجورًا كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، آن لك أن تحصد ما زرعت من أحلام قلبك الغر غدًا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، المخلصون قتلى أما أبناء الخونة فسفراء"(١٧).

والواقع أن مأساة كمال لا ترجع إلى مثاليته المستحيلة التحقيق، قدر ما ترجع إلى عجزه عن جمع القدرة اللازمة لتحويل المستحيل إلى حقيقة، هذا العجز هو الذي يجعله يفزع من اتخاذ المواقف، وتحديد الاتجاهات؛ لأن الموقف والاتجاه يستتبعان العمل، والعمل بالنسبة له

شيء رهيب! هو لهذا يهرب من الممكن إلى المستحيل ومن الجزئي السهل التحقيق إلى المطلق المستعصي على البلوغ، هو هاملت آخر مشلول الإرادة مشفق من حمل العبء ساخط على القدر؛ لأنه خصه بهذا العبء كمال يدفع ضريبة فادحة يتقاضاها التاريخ من كل من يواجه معركة كبرى فيقرر تارة أن يلعب فيها دور "اللامنتهي" وتارة أخرى دور الإنسان الكبير القلب، الذي تضعه عواطفه النبيلة فوق المعركة في الحالتين ينأى كمال عن المعركة، والمعركة بعض منه تدور في داخل نفسه كما تدور في خارجها ألم يخسر ابن التاجر فتاته لأنه ابن تاجر؛ ولأن غريمه ابن مستشار؟ ماذا أفاد إزاء هذه الخسارة؟ أن يتعفف عن الشماتة بآل شداد ويتركها لأحمد المفتون بصراع الطبقات، فوارق الطبقات حقيقة دمرت حياته، وكلما حاول أن يهرب منها لاحقته في موقف وراء آخر"[١٨].

يقول فؤاد الحمزاوي بعد أن أصبح وكيلًا للنيابة: «ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى، أصبر حتى أُرَقَّى قاضيًا مثلًا فيسعني أن أصاهر وزيرًا إذا شئت ويعلق كمال وهو يخاطب نفسه يا ابن جميل الحمزاوي عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة»[١٩].

وهذا هو الإحساس الطبقي المترسب في وجدان كمال يطفو على السطح بعد أن أثارته وصولية فؤاد، وقطعًا الآن تعكس وجهًا بعينه من العلاقات الاجتماعية تتسم بالاستعلاء الطبقي، فنحن نرى كمال المفكر المثالي المتعالي على الطبقات يتعاطف مع عبد المنعم ابن أخته الذي نُلاحظ ميله للحملة على فؤاد والحط من قدره فهو يدرك خطورته وتفاهته في آن وذلك بالقياس إليه.

ولـيس تجاهـل كمـال لوجـود الطبقـات، إلا غشـاءً رقيقًـا يكشـف فـي جوهره عن شعور حادّ بالفواصل الطبقية التي فرقت بينه وبين من أحب، وهذا الشعور ظهر في صورة استعلائية مع "فؤاد" ومن جانب آخر فإن هذا التجاهل ليس إلا وسيلة أخرى من وسائل الهرب من الجزئي السهل التحقيق إلى المطلق المستحيل البلوغ ما دام ليس هناك طبقات بل إنسانية عامة، فليس ثمة محل للمعركة وهذا هو ما يريده كمال، وما يسعى إليه ليعيش في سلام مع نفسه، ولكن الواقع المحيط به وتساؤلاته الدائمة تؤكد له جميعًا زيف هذا المعتقد. إن هذا موقف لا يتخذه إلا من حُرم الإيمان لهذا يحسد كمال ابن أخته عبد المنعم على إيمانه المقرون بالعمل(٢٠).

وكمال رومانسي حتى النخاع، يتألم إن نزل "المثال من عليائه فهو حزين لا لفقد الحبيب فإنك ما طمعت يومًا في امتلاكه، ولكن لنزوله من علياء سمائه لتمرغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب؛ لأنه رضي لخده أن يُقّبل، ولدمه أن يسفح ولجسده أن يُبتذل"(٢١).

ويناجي نفسه "واقلباه أيليق هذا العبد بالمعالي!، يحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتتوحم وتنداح بطنها وتتكور ثم يجيئها المخاض فتلد؟"(٢٢) وبعد أن تصافح كمال وإسماعيل وافترقا عاد ثانية إلى العباسية حيث تراءى له شبح البيت وراء سوره العالي كالقلعة الضخمة فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا على نافذة مغلقة يُوَصْوص النور من خلال خصاصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني تلك غرفة العرس يتطلع إليها طويلًا، أول الأمر بلهفة، كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه

فيما وراء الغيب"[٢٣] وهنا إرهاص بالتحوّل الجذري في منحنى شخصية كمال الفكرية والوجدانية.

لقد خلق كمال من معبودته مثالًا، نفخ فيه من روحه، وجعله كائنًا أثيريًا يحاول أن يُحَلّق حوله هائمًا، ولا ينزل إلى واقع المحبوب، ورغم غرامه المسرف في الرومانسية فهو لا يتصور أن يسري على أية امرأة من ظواهر فسيولوجية، ورغم إصراره على أن يعشق من عايدة الروح، ويغفل الجسد، فإنه لا يستطيع أن يتعزَّ عن فقدها بأن يحولها إلى فكرة، فهو يرغبها لنفسه، رغم ما يردده من أنها المعبود الذي لا يطمع سوى أن يحيا معه حياة الروح، ألم يقل هو نفسه بعد ذلك "وهل يتزوج الإنسان إلا بدافع من الأنانية" فهو يريد عايدة المرأة وعايدة المثال حتى يحقق لنفسه التوازن الوجداني، وما دام لم يحصل على عايدة المرأة، فهو يثور ثورة العاجز وينسحب من الدنيا ويهمل الحياة ويلقى بالمثال إلى أغوار نفسه اللاواعية لم يخل هذا الحب قطّ من الرغبة، فلم يستطع كمال أن يرقى به إلى سلامة التجريد الكامل، فكان يتخيل عايدة في أوضاع كثيرة تتصل بالجنس، يتخيل ما يدور في غرفة نومها ليلة الزفاف، ويتخيل بطنها وقد تكوّرت بالحمل، وصحيح أنه يتقزز لتخيل هذه المواقف، ولكن طوافها بخياله له أمر ذو بال، إنه يمثل رغبة مكبوتة لم يستطع أن يخلص الحب من حب الذات، فكان لا مفرّ أمامه من أن يلاشي الذات ليهرب من موقف لا يمكن إلى الأبد احتماله"[٢٤].

فالفشل العاطفي كان نتيجة لانتمائه إلى البورجوازية الصغيرة التي من سماتها التطلع، فكان لا بد أن يهوي كمال ويتداعى، وهذا التطلع هو الذي أدى إلى اغترابه عن ذاته وعن العالم الخارجي، فلم يكن حبه، وهمًا

ولا صدى لوهم، بل كان على حدّ تعبيره "حياة الحياة"[٢٥] "ومن ثم إذا انمحى هذا الحب فَقَدَ بالتالي إحساسه بالوجود، وفقدت الأشياء هويتها ودلالاتها"[٢٦].

وليس أدلّ على خطورة هذا التحوّل وعمق جذوره، من أن هذا الفشل كان من الأسباب العميقة التي أدت إلى الانقلاب الديني في حياته بحيث أصبح ماديًا في تفكيره بعد أن كان مثاليًا، غريبًا بعد أن كان منتميًا مثاليًا.

في البدء كان متحمسًا لمبادئه السياسية يدافع عنها، بوصفه ممثلًا لأبناء الشعب وللطبقة البورجوازية الصغيرة البازغة، ثابت العقيدة يستند في ذلك إلى أُسس دينية، فهو في هذه المرحلة هادئ في سربه، إنه يأبى أن يشرب البيرة، ويأبى أن يأكل لحم الخنزير غير أن هذا الانتماء لم يدم طويلًا، فقد صحا من غيبوبته الرومانسية على زواج عايدة من صديقه حسن سليم، وبرغم أن صديقه إسماعيل لطيف أخبره أنها استخدمته لإثارة غيرة حسن ونجحت في الظفر به إلا أنه ثابت في حبه.

ومرت أعوام وماتت عايدة، ومن عجب الأقدار أنه اشترك في تشيّيع جنازتها دون أن يدري أنه يودع ماضيه غادر المشرب وهو يقول لنفسه: "إني حزين يا عايدة؛ لأني لم أحزن عليك كما كان يجدر بي"[٢٧] ولكن هذا الأسى الذي ران على قلب كمال، هو بقية من ماضٍ بعيد أين هو منه الآن؟ لقد تداعى "المثال" بعد أن غاب عنه إلى الأبد، لكنه ترك بصمات حفرها في قلب كمال وفي رؤيته للأشياء فيناجي نفسه: "لو علم فؤاد الحمزاوي بقصته لقال له وهو يواري سخريته تحت طلاء أدبه المعهود، الحق عليك، فأنت الذي هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس فذق هجر الآلهة. السماء أو لا شيء هذا هو جوابي، فلتتزوج

كما تحب لن تظفر بحب كحبي لم أعد من سكان هذا الكوكب غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرباء"[٢٨].

وبدلًا من أن يتماسك كمال ويواجه الأزمة العاطفية، نلاحظ أنه يدخل في شرنقة الذات وتلفه معها بخيوطها وأنانيتها، وهذا ما يسلم منه أحمد ابن أخته، فبعد أن فشل في حبه لم ييأس، بل مضى في إيجابية نحو تأكيد ذاته بالإيمان والعمل الثوري، ووجد ذاته فيمن تؤمن بمبادئه وَمُثُلهُ، أما كمال فهو ممن يدورون حول أنفسهم، فالرحمة لهم كما يقول.

والفواصل الطبقية هى التي أزرت بكمال وبحبه، فهي التي فجرت الأزمة العاطفية التي اكتوى بنارها، وقد تركت هذه التجربة في نفسه مرارة، شعر بأن الحياة قد جرحت كبرياءه وكرامته حاول كمال بعد أن فشل في أن يجد ذاته فيمن أحب، حاول أن يحتفظ بتكامل الأنا فانطوى على ذاته، يجتر فشله ويقتات همومه، وخلع على نفسه شخصية المفكر المتعالي على الغير، فهو حائر وسط مجتمع هابط.

الاغتراب ولحظة الإدراك والتحوّل:

إنَّ الوعي الذاتي يقتضي الشعور بالآخرين، والإنسان اجتماعي في أعماق طبيعته، وانعزال الذات انعزالًا مطلقًا ورفضها الاتصال بأي شيء آخر خارجها عبارة عن انتحار وهو يرتبط بحالة من العذاب والضعف والتهافت والتمزق، "وهذه الحالة من الشقاء تتصل بما أطلق عليه بعض الفلاسفة من أمثال "زمّل" و"تالتشي" و"يَسْبَرز" الموقف الحدّي للإنسان، والإنسان لا يدرك شخصيته وأصالته وتفرّده وتميّزه عن كل شخص وعن كل شيء إلا عندما يكون وحيدًا، وإلا عندما يستبدّ به ذلك الشعور الحزين الكئيب بانعزاله والشعور بالعزلة الحادة يميل إلى أن يجعل كل شيء آخر

يبدو غريبًا معاديًا، وحينئذٍ يشعر الإنسان بأنه غريب متوحد لا وطنًا روحيًا له، ومن الخطأ اعتبار العزلة نزعة انعزالية وإنما على العكس من ذلك لا توجد عزلة وإلا كان وجود الذات الأخرى والأنا الأخرى مرادفًا للعالم المجرد الموضوعي"[٢٩]والأنا لا تعاني عزلتها داخل نفسها مثلما تعانيها وسط الآخرين، وسط عالم مُجرد، والعزلة المطلقة لا يمكن تصوّرها بل من الضروري أن تكون مقترنة دائمًا بوجود الغير والذات الأخرى، بيد أن فكرة العزلة تفترض دائمًا الحاجة واللهفة إلى الاتصال الروحي، "وحينما يصبح الإنسان مدركًا لنفسه بوصفه شخصًا وحينما يتطلع إلى تحقيق شخصيته عندئذٍ ينبغي عليه أن يعترف أولًا بعجزه عن الاستمرار في وجوده التنسكي، وأن يعترف ثانيًا بالمصاعب العظيمة التي تكتنفه من كل جانب في محاولة الهروب من عزلته وأن يجعل من نفسه شيئًا واحدًا مع الذات الأخرى والأنَّات الأخرى"[٣٠].

والعزلة ظاهرة اجتماعية بمعنى من المعاني لأنها تفترض الشعور بالذات الأخرى وإن أكثر أشكال العزلة تطرفًا وكآبة هو ما نعانيه وسط المجتمع في العالم الموضوعي "واتصال "الأنا""بالا أنا"، وبالعالم الموضوعي لا يحلّ مشكلة العزلة فهذا الاتصال يحدث كل يوم ولكنه يضاعف من عزلة الإنسان أكثر من أن يخففها وهذه العزلة لا يمكن التغلب عليها إلا في المستوى الوجودي بالتقاء الأنا مع أنا أخرى وحينما تتجرد من حياتها الجماعية الأولى، وتعاني المولد المؤلم للوعي والانفصال والعزلة فإنها لا تستطيع أن تحقق التكامل والانسجام والاتصال الروحي بالآخرين بأن تعود إلى الحياة الجماعية في عالم فوضوي بل ينبغي عليها أن تجد مخرجًا من العالم الموضوعي الذي لا يوجد فيه أي اتصال روحي والأنا تحاول أن تتغلب

على عزلتها بوسائل عدة كالمعرفة والحب والصداقة والحياة الاجتماعية والأعمال الأخلاقية والفن وغير ذلك"[٣١] والذات تعاني حاجة عميقة إلى أن تنعكس انعكاسًا حقيقيًا في ذات أخرى، وأن تتأكد وتتحقق بواسطة ذات أخرى، وهي تتطلع إلى أن تسمع وأن ترى وهنا تكمن الدلالة العميقة للحب "والعزلة هى النتيجة المباشرة للضغط الذي يفرضه العالم الطبيعي والاجتماعي على الشخصية لتحويلها إلى موضوع، ولكن للشخصية وظيفة خالقة عليها أن تمارسها في الحياة الاجتماعية والكونية، ومن الناحية الروحية لا يمكن عزل الشخصية؛ لأنها تفترض وجود الآخرين دون أن تصبح في الوقت نفسه جزءً أو وسيلة"[٣٢].

"إن القيمة الأخلاقية للأفعال تقاس بما توحي به إلينا من طاقة، كذلك يحكم على شأن الحب تبعًا لثروة الأفكار والمبادرات التي يبتعثها فينا، والطاقات الغافية التي يوقظها"[٣٣] وربما أمكن –من خلال الحب– أن نكتشف الكائن ذاته في حركة حياته في مستقبله الخلَّاق، أو على العكس، في لا انتمائه وعقمه كما حدث مع كمال.

وتسجل نهاية قصر الشوق –الفصل الأربعون بالذات– اللحن الجنائزي لحياة كمال المثالية وتؤذن "بإيقاع" جديد هو في جوهره "تنويعات" على الفلسفة المادية إذ يقف كمال غريبًا عن ذاته وعن المجتمع بعد أن وصل إلى لحظة الإدراك وهي اللحظة الفريدة التي يقف فيها المرء وحيدًا وقد أدرك حقيقة نفسه، بدأ يتساءل –بعد أن فقد إيمانه بكل القيم والأشياء– عن الغاية من وجوده في هذه الدنيا.

ولحظة الإدراك هذه – لا تؤتى إلا لمن "يشعر بالعزلة والمجتمع في آن واحد، وقد يبدو هذا غريبًا لأول وهلة، إذ تتنافر العزلة عادة مع الروح

الاجتماعية، وهذا النوع يضمّ المبدعين والمجددين والمصلحين وأصحاب الثورات الروحية ويكون في صراع دائم مع المجتمع الديني أو الاجتماعي، وقلّما يكون في انسجام مع البيئة الاجتماعية أو الرأي العام"[٣٤].

ويعرف كولن ولسون الغريب أو اللامنتمي: "إنه الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهٍ، والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرًا من النظام الذي يؤمن به قومه إنه كما يقول باربوس، يرى أكثر وأعمق مما يجب وهو لا يرى إلا الفوضى"[٣٥].

ويتميّز الجو الذي يحيا فيه الغريب بأنه جو كريه جدًّا، "فهؤلاء الأشخاص لا يرفضون الحياة فحسب، وإنما يعاديها الكثير منهم، إن عالمهم المجرد من القيم، هو عالم أشخاص بالغين، والفرق بين عالم البالغين وعالم الأطفال، هو أحد الفروق الرئيسة بين عالم القرن العشرين وعالم القرن التاسع عشر لقد كان لا منتمي القرن التاسع عشر طفلًا لا ينتظر منه أن يكون متشائمًا، ولم يستطع لا منتمي القرن التاسع عشر أن يعتقد أن الخطأ كامن في الطبيعة الإنسانية؛ لأن الفلسفة التي كانت غالبة على ذلك العصر كانت تقول بأن الكمال الإنساني شيء يمكن أن يتحقق؛ ولهذا فقد ظنَّ أن الخطأ يكمن فيه[٣٦].

وينبغي أن نلاحظ أن اغتراب كمال من نوع خاص، وليس كاغتراب الإنسان الأوروبي، الذي يعد ثمرة أو إفرازًا لمجتمع بورجوازي بدأ فيه الفرد يشكو من نُذُر تداعي الحضارة الغربية، مجتمع فقد الفرد فيه إيمانه بالدين والعقل وانطلق كالشهاب المحترق غريبًا بعد أن اقتلع جذور شجرته بيديه.

أما كمال فاغترابه يتوّلد من انتمائه إلى مجتمع شرقي مسلم، يؤدي الإسلام فيه دورًا صلبًا يصعب اقتلاع جذوره، فالميراث الحضاري الذي ترسب في لا شعور كمال، كان ميراثًا إسلاميًا، في حين أن الواقع الاجتماعي كان يطرح سؤالًا يطلب الإجابة وهو: كيف يستوعب الإنسان الشرقي المسلم الحضارة الغربية وهي حضارة علمانية عقلانية تستند أساسًا إلى العلم والتكنولوجيا؟ كيف يتمثل هذا العطاء الحضاري الإسلامي؟ وهل يمكن لهذا الإنسان أن يصل إلى التوازن بين الذات والواقع المتغير بفعل الشرارة الحضارية التي كهربت مصر وغيّرت وجهها، دون أن يتخلى عن الدين، وهو لبّ ميراثه الذي كان يمثل في يوم ما محور النظر للأشياء؟

ويمضي كمال في رحلة البحث عن التحوّل العظيم الذي طرأ على حياته فيتعرف إلى المرأة، بالأمس كان يناضل الغريزة بالدين وبعايدة، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو، غير أن ثمة حافزًا آخر للمغامرة، وهو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذي تنطوي عايدة نفسها تحت جنسه ولو كره، لعل في ذلك عزاءً عن السهاد والدموع المطوي سرها في جوف الليل المكتوم، الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى في طريق الخلاص، وإن يكن طريقًا مخمورًا محفوفًا بالشهوات والمكاره أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد، ينفث حرارة وصبوة، فتابعه مستسلمًا كما يتابع نغمة حلوة.

لكن ما الأثر الذي خلفته أول تجربة له مع "الجنس"؟ لقد تاقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل، وحنَّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذبًا في ظل المحبوبة، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى

الأبد. "أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه، إذا كانت الحقيقة قاسية، فالكذب ذميم ليست الحقيقة قاسية، ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كولادة.اجرِوراء الحقيقة حتى تنقطع منك الأنفاس، ارض بالألم حتى تخلق نفسك من جديد هذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها، عمر من التعب تتخلله سويعات من الخمر(٣٧).

يمر كمال بلحظة الوعي بالذات والوعي بالآخر تتكشف له الحياة عن أشياء كان يجهلها فساءت نفسه منها، وإن تكن قد صهرته "تأمل هذه العجائب أنت وياسين تتشاربان، أبوك شيخ ماجن، هل ثمة حقيقي وغير حقيقي؟! ما علاقة الواقع بما في رؤوسنا؟! ما قيمة التاريخ؟ أنا نفسي ما أنا؟ لماذا تألمت ذلك الألم الوحشي الذي لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تُنْفق(٣٨).

والدافع الحقيقي وراء هذا الألم شعوره بالذنب وحنينه الداخلي للعودة إلى الدين ونشأته الطاهرة النقيّة.

ويقول كولن ولسن عن هؤلاء اللامنتمين: "إن مشكلتهم هي لا حقيقة حياتهم، وهم يدركون ذلك فعلًا حين يكون سببًا في إيلامهم، إلا أنهم لا يدركون مصدر هذا الألم، إن هذا العالم الاعتيادي يفقد قيمته بالنسبة إليهم، ولا تتم الحياة بطابع الكابوس أو بما يشبه شاشة السينما حينما تكون بيضاء إذ يدرك هؤلاء الأشخاص فجأة أن ما كانوا يشاهدونه من آمال ورغبات لا يعدو فيلمًا مصورًا على الشاشة، فيسألون من نحن؟ ماذا نصنع هنا؟ وبينما ينتهي وهم الشاشة وينقطع سيل حوادثها العريضة ومصادفاتها فجأة يجدون أنفسهم وجهًا لوجه أمام حرية مرعبة ويعبر سارتر عن ذلك بقوله: "إنهم محكوم عليهم بالحرية" إن اللا منتمي هنا هو

ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يقبل الحياة كما هى، والذي لا يستطيع أن يعتبر وجود أي فرد آخر ضروريًا، وهكذا فالمشكلة ما تزال مشكلة تعبير ذاتي"(٣٩).

ويتأمل كمال الغريب شريط حياته، علاقته بأمه وأبيه وصاحبته وعلاقته بربه كيف كانت، وكيف أصبحت، ويعود مستوحشًا شكاكًا، غريبًا في منفاه الفكري، فيثور على أمه «وأنت يا أمي لا تحملقي في وجهي إنه الجهل هو جنايتك أبي هو الفظاظة الجاهلة وأنت الرقة الجاهلة، وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين، وجهك أيضًا هو الذي ملأ روحي بالأساطير فأنت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف، وكم أشقى اليوم في سبيل التحرر من آثاره كما سأشقى غدًا في سبيل التحرر من أبي(٤٠).

أما أبوه السيد أحمد عبد الجواد فيكتشف كمال أنه أخو صبوة وطرب، وحليف كأس ووتر، وهو في ثورته على أبيه يتمرد على الجهل الذي سبب توتر العلاقة بينهما؛ لذا يكره الجهل أكثر من أي شر في الحياة، فهو مفسد لكل شيء حتى الأبوة المقدسة ... غير أني ما زلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زايلتك صفات الألوهية التي توهمتها فيما مضى عيناي المسحورتان أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة ولكن لست وحدك الذي تغيرت فكرته إني قد قررت أن أضع حدًا لاستبدادك لا بالتحدي والعصيان، فإنك أكرم على نفسي من أن أفعل لك هذا، ولكن بالهجرة أجل لأُهاجرنَّ من بيتك حال أقف على قدمي أتدري ماذا كانت عواقب حبي لك رغم استبدادك بي؟ أني عبدت مستبدًا آخر، طالما ظلمني بظاهره وباطنه معًا، استبد بي، عبدته من أعماقي، ولا زلت أعبده، فأنت أول مسؤول عن

حبي وعذابي[٤١] وهذا الإحساس يعمق من أخدود الانفصال بين كمال وبين أسرته حيث يزداد شعورًا بغربته فكرًا ووجدانًا.

يقف كمال وحيدًا، غريبًا بعد أن أدرك أن كل شيء هالك، مصيره الفناء مضى مدفوعًا بروح الباحث عن الحقيقة كل شيء تغيّر مدلوله ومعناه" الله ... آدم ... الحسين ... الحب ... عايدة نفسها ... الخلود؟ نعم، فيما يجري على الحب وفيما جرى على فهمي ... أتذكر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصير المجهول؟ يا للذكرى المحزنة، اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها وحفرت لها قبرًا صغيرًا في فناء البيت على كثب من البئر القديم ثم دفنتها فيه وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فماذا رأيت وماذا شممت؟ وذهبت إلى أمك باكيًا فسألتها عن مصير الميت، ومصير فهمي خاصة، فلم يصدك عنها إلا إفحامها في البكاء، فماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب"[٤٢].

ومن المؤكد أن مأساة كمال، وإن كان الحب يحركها ويتحكم فيها، فإنه أبدًا لم يخلقها في البداية "إن حيرة كمال وتردده ولدت معه هى حيرة مبعثها التعلق بشيء غامض مطلق مجهول يسميه الحقيقة"[٤٣] والمشهد السابق نجد كمال وراء هذا الشيء الغامض المطلق، بغية أن يمسك به، ويعرف كنهه وجعل يبني حياته من جديد على صخرة الدين والفلسفة المثل الأعلى في سبيل إدراك الحقيقة خرج كمال في رحلة البحر استغرقت حياته كلها، وكانت عدته فيها: "رأس كبير وأنف ضخم وحب خائب، وأمل في المرض"[٤٤] وهو يفكر في عيد ميلاد جديد "عقل قد شرب من منهل الفلسفة المادية حتى ألم في شهرين بما تمخض عنه تفكير الإنسانية قرنًا

من الزمان مضى من العمر تسعة عشر عامًا، مضى عهد البغضاء، ولحق به العهد الذي كانت تؤرخ فيه الحياة، بالحب يمتلك أشواقًا كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه فهو يعرف الحقيقة ومسرة الحياة ونور العلم"(٤٥).

الموقف من الحياة وغربة البطل الأيديولوجية:

يتأمل كمال موقفه من الحياة بعد مرور عام جديد لم يعد يجد رفيقًا يحاوره بمكنون روحه فاتخذ من روحه صديقًا، ومضى يناجيها ويحاورها: «لا أخفي عنك أني قد ضقت بالأساطير ذرعًا، غير أني في خضم الموت العاتي عثرت على صخرة مثلثة الأضلاع سأدعوها من الآن فصاعدًا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى، ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها، أما الفن فمتعة سامية، وامتداد للحياة، غير أن مطمحي أبعد من الفن منالًا؛ لأنه لا يرتوي إلا بالحقيقة، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو لهوًا أنثويًا، وتسألني هل أؤمن بالحب فأجيب: بأن الحب لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعني إلا أن أقر بحقيقته الإنسانية، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير، فإن نقوض المعابد المقدسة لم يزعزع أركانه أو يقلل خطورة شأنه ألا زلت تؤمن بخلود الحب، ليس الخلود إلا أسطورة، لعل الحب يُنْسَى ككل شيء في هذه الدنيا، وقد انقضى زواج عايدة –لم تتردد قبل التفوّه باسمها– قطعت شوطًا في طريق النسيان، مررت بطور الجنون، فطور الذهول، فطور الألم الحاد، ثم طور الألم المُتَقَطِّع، وعلى أي حال غدوت أؤمن بأني سأواصل الحياة بلا عايدة، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأسر، وأعشق الحرية المطلقة سعيد من لا يفكر في الانتحار، أو يتمنى الموت، سعيد من تتوهج في قلبه شعلة الحماس،

وخالد من يعمل أو يتهيأ صادقًا للعمل، حي من يتأثر بكتاب الخيام، وكأس معشوق، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيرًا حسنا، وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزز أو نفور أما حنينك من حين لآخر إلى الطهر المتقشف، فلعله بقية من دينك القديم"(٤٦).

يحاول نجيب محفوظ قطع الصلة التامّة بين كمال وثوابت الدين حيث يتعامل نجيب محفوظ مع الدين ويعدُّه الجوهر السبب الأساسي للشعور بالذنب في علاقاته المُحرمة بالمرأة أو شُرب الخمر، وكلما تخلص الإنسان من تقاليد الدين كلما أصبح أكثر انسجامًا في التعامل مع المحرمات، وهذه الآراء لا تُمثل شخصيات الرواية بقدر ما تمثل نجيب محفوظ نفسه، فضلًا عن أنها آراء علمانية تحرص على عزل الدين عن كل شئون الحياة.

وكمال في قمة غربته، يكون في قمة إحساسه بفرديته العالية، وبوجوده الفردي لا وجوده الاجتماعي "قد أكون معذبًا حقًا ولكنني حي إنسان حي، ولن تكون حياة الإنسان الخليقة بهذا الاسم بلا ثمن، هذا هو العذاب الذي يدفعه الغريب جزاء سلبيته وتردده وأنانيته عن المشاركة الإنسانية العامة وضنه بنفسه عن أن يجعلها في خدمة المجموع فأي حياة تلك، إنها حياة قاحلة عقيمة.

وطبيعي أن يعزف كمال عن الزواج، إذ إنه شعر بأن المجتمع والنظام الاجتماعي القائم على الفواصل الطبقية قد حرمه ممن أحب ومن ثم أحس بأن العالم الخارجي قد اعتدى على كرامته فانسحب من المعركة مكتفيًا بالآمال يلهث وراءها(٤٧).

والزواج هو في جوهره محاولة للانتماء والتكامل والتوازن الوجداني، وتصور كمال أن المفكر لا يتزوج وما ينبغي له، وأنه طالما ارتضى لنفسه صفة المفكر، فلا ينبغي له أن يفكر أو يتطلع إلى الاستقرار، كان يتطلع إلى فوق، ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت، ويلذّ لكمال أن يتخذ موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة، وإنه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله، والمرأة عنده لم تعد سوى شهوة تُقْضى وفوق هذا فهو حائر يُداخله الشكّ في كل شيء والزواج نوع من الإيمان، وقد أورثه الشك ترددًا وحيرة فهو يرى الزواج دائمًا في مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أما في نهاية العمر فلن تجد إلا الوحدة والكآبة"(٤٨).

ويتعارض موقف نجيب محفوظ من المرأة والزواج تعارضًا تامًّا مع الدين الذي كرم المرأة زوجة وأمًا وابنة، وجعل من الزواج سكنًا ومودة ورحمة، وكذلك يتعارض تعارضًا كُليًّا مع الجانب الاجتماعي والنفسي، حيث يعدّ الزواج استقرارًا نفسيًا واجتماعيًا، ويؤكد على دور المرأة البارز في تقدم المجتمع.

شعر كمال أن كل شيء من حوله يتداعى، وأنه افتقد صديق روحه المعذبة، يقول لصاحبه وهو يحاوره: "تصور أن تغرق حتى قمة رأسك في هموم الحياة اليومية أن يحسب وقتك بالقروش والملاليم أن تمسي شاعرية الحياة ضياع وقت إن الذي يكربه الآن أنه بات مهددًا بالوحدة المرعبة مرة أخرى كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته"(٤٩).

وكمال يتشوق إلى الانتماء، ومن ثم فهو يسعى إلى ممارسة حياته الوجدانية والعقلية ممارسة إيجابية مع المرأة حتى تتوفر السكينة لكنه

مطحون بين التردد والشك؛ لذا فهو يردد بصره بين أحمد وعبد المنعم شوكت في إعجاب مقرون بالغبطة "إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بيّن دون شك أو حيرة، ترى ما سر دائي الوبيل؟"(٥٠) إنه يتساءل عن سر تردده وشكه، وهو يعلم علم اليقين السبب الأصيل لذلك، إن مشكلته هي الإيمان ليس بالتمني وإنما ما وقر في القلب وصدقه العمل، هذا الإيمان هو الإيمان الذي فهمه أحمد وعبد المنعم، على اختلاف اتجاهاتهما الأيديولوجية، وما اعترف به كمال "المشكلة هى كيف نخلق لأنفسنا هذا الإيمان" لكن كمال لم يعد يؤمن بشيء "أصبح يرتاب أحيانًا في قيمة ما يكتب، وربما ارتاب في ارتيابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قد ضاق بكل شيء ذرعًا، وأن الدنيا تبدو أحيانًا كلفظة قديمة اندثر معناها"(٥١) وهكذا تمضي حياته كالطاحونة تدور وهو يمدها بنفسه الدقيق.

كان كمال مدافعًا عن الشعب وعن زعيمه في حرارة فهو يقول لصديقه إسماعيل لطيف: "أنت لا تهمك السياسة في شيء، لكن مزاجك يفصح أحيانًا عن موقف "فئة" من المحسوبين على المصريين، كأنك ناطق بلسانهم، نراهم يائسين من نهوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح ولولا السياسة مطيّة لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت(٥٢).

ونجيب محفوظ يحرص في هذا العمل الفني أن يسجل الإيقاع التاريخي للواقع السياسي في مصر فيقول: "لقد اتضح أن مجموعة من زملائه أبناء الذوات والطبقة العليا كانوا ضد سعد، ومع عدلي والملك والإنجليز تسربَ إلى نفسي من هذه الخصومات الحزبية الكثيرة سوء الظن لهذه الطبقة الأرستقراطية لقد بدأت أشعر أن لهم موقفًا خاصًا هو في

النهاية غير موقف الشعب ويقترب كثيرًا من موقف السراي والإنجليز، وهذا شيء طبيعي جدًا، فمصلحة هذه الطبقة لن تكون إلا برضى الملك والإنجليز وليس الشعب"(٥٣).

وهذا الاتجاه نحو الالتحام بالشعب، يبرز من خلال المناقشات التي دارت بين كمال وبين رفاقه الأرستقراطيين، كانوا يتعالون على الشعب ويدافعون عن الحزب الذي ينتمون إليه باعتبارهم أصحاب المصلحة الحقيقية في هذا البلد، هكذا يتصورون، وهم في الواقع آخر من ينظر إلى مصلحة الوطن والمصلحة الحقيقية عندهم هى مصلحتهم الخاصة، إنهم إذا ما تكلموا عن الشعب فكأنما يتكلمون عن شعب غريب أما كمال ممثل الشعب الأصيل فكان يدافع عن حقوق الشعب، وعن زعيمه سعد زغلول بحيث يصبح مندوب سعد، ويصبحون هم مندوبي عدلي وثروت ومحمد محمود.

والصراع السياسي لا ينفصل هنا عن الصراع الطبقي، بل هما وجهان لحقيقة واحدة وهى المشكلة الاجتماعية، أو بقول آخر مشكلة العدالة الاجتماعية، فهما من أشكال البناء الفوقي للمجتمع، وهي المشكلة التي احتوت حياة كمال، هنا الأرستقراطية بكل ثقلها ونفوذها، ممثلة في رفاق حسين شداد وحسن سليم تناقش البورجوازية المصرية البازغة بكل طموحها وآمالها ممثلة كمال، ومحور الصراع، وكرم الأصل وشرف المنبت، والفواصل الاجتماعية بين الطبقتين ويتأزم الصراع حين يفصح كمال عن حبه لعايدة، وتسخر عايدة من أوهامه وتقترن بابن المستشار حسن سليم، فَضَلَته على ابن التاجر، والهزيمة هنا تشي بهزيمة الشعب فهي في بعدها الأخير هزيمة اجتماعية في مضمونها، وتعد نقطة تحوّل

ضخمة في خط السير النفسي لكمال، تناولها نجيب محفوظ كبداية لأثر الصراع الطبقي في أزمة جيل سابق عاش في مجتمع مريض.

وكمال نفسه شعر بأن مشكلته الشخصية لا تنفصل عن المشكلة الاجتماعية لوطنه ومن عجب أنه وجد في الحياة الاجتماعية صورة مكبرة لحياته فكان يطالع أنباءها في الصحف، وكأنما يطالع مواقف مما مرَّ به في بين القصرين أو العباسية هذا سعد زغلول شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة، وخيانة الأصدقاء وغدرهم وكلاهما –هو وسعد– يكابدان أحزانًا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم، تقمص شخص الزعيم في كدره، كما تقمص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنما كان يعني نفسه، يقول عن سعد زغلول: "أتليق هذه المعاملة الظالمة لهذا الرجل المخلص وكأنما كان يعني حسن سليم ويقول عن زيور خان الأمة واستحلّ القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة، وكأنما كان يعني عايدة وهو يقول عن مصر: "هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟[٥٤].

والواقع التاريخي للبورجوازية الزراعية المصرية وموقفها من ثورة ١٩١٩م يكشف عن طبيعة الدور المعوق للحركة الوطنية وللثورة وزعيمها سعد زغلول، إذا كانت الطبقة البورجوازية الزراعية قد آزرت الثورة في بعض مراحلها ثم تخلت عنها وهادنت الاحتلال منذ ١٨٨٢م إلى ١٩١٤م وتركزت في حزب الأمة والجمعية التشريعية مناوئة للحركة الوطنية، فإن هذه الطبقة قد أحست بضرورة التصدي لثورة الشعب ١٩١٩م وكانت من العناصر التي سيطرت على قيادة الثورة منذ بدايتها فقد كشف سعد زغلول

في خطاب ألقاه في ٢١ يناير ١٩٢١م حقيقة هذه الطبقة، لقد رأيناهم يقابلون بوجوه باشّة بسامة، كل خبر يدل على ضعف النهضة الوطنية وفتور الهمم وانحلال القوى. إن حزب الأمة عاد إلى بدايته وانتهى إلى غايته، وقد أبان سعد زغلول عن دخول الثورة في مرحلة جيدة ارتفعت إلى مستوى الوعي القومي الذي تفجر منذ مارس ١٩١٩م وكان وقوده العمال والفلاحين والمثقفين والطلبة؛ وكانت نتيجته آلاف من الشهداء والضحايا، كما أضاف إلى قضية الاستقلال قضية التناقض الطبقي أي تحالف الطبقات، هذه الطبقة البورجوازية المكاسب الكثيرة بسبب الثورة وعلى حسابها وقد انعكست هذه السيطرة الاقتصادية على المناخ السياسي فتآمرت السراي وأصحاب المصالح الحقيقية مع قوات الاحتلال على الإطاحة بالحياة النيابية والقضاء على الدستور، وممارسة الحكم إرهابيًا أما الحريات العامة التي تضمنها دستور ١٩٢٣م، فقد تمخضت عن تعبير أجوف لعدالة شكلية، فالحرية ذريعة الطبقة المستغلة، ولا شأن للجماهير الكادحة من المنتجين بالحرية ولا شأن للحرية بها، واتخذت وقاية النظام الاجتماعي وسيلة لكبح جماح الآراء التي كانت تنشد "العدالة الاجتماعية"(٥٥)، وهذا التحليل للواقع الاجتماعي للبورجوازية الزراعية، يُلقي أضواء على تجربة كمال الأيديولوجية بوصفه ممثلًا لجيل مأزوم ومعبرًا عن القوى الشعبية الوطنية.

ويموت سعد زغلول فيهزّ موته كمال من الأعماق «النفي والثورة والحرية والدستور مات صاحبها كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته»(٥٦) كان موت سعد زغلول بمثابة نعي لعقيدة كمال السياسية وبداية لاغترابه الأيديولوجي "لقد فقد في الصدمة الأولى حبه

العاطفي، وفقد في الصدمة الثانية حبه القومي، وكلاهما كان نقطة ارتكاز موجهة لأبرز انطلاقات السلوك الفكري والموقفي بالنسبة إلى شخصية كمال في السكرية، ولقد هزّ موتهما –موت حبه القومي وحبه العاطفي– جانبًا كبيرًا من قيم وجوده: الأمل، والتفاؤل، والخطوة الزاحفة إلى المستقبل فوق معبر من الطموح والثقة بالنفس.

استمرّ كمال الغريب الشكاك في منفاه الفكري يشارك في الأعياد الوطنية ولكن ليس بالحرارة والقوة التي كان عليها فيما مضى بدأ الشك يزحف على إيمانه بالقيم فيهزها في عمقها المستكن في صدره والمتغلغل في حناياه، ومضى يتساءل أهذا الشعب الذي استكان للطغاة في سلبية مثيرة هو ذلك الشعب الذي كان كل اهتمامه ينصب على مشكلة الدستور والأزمة الاقتصادية والموقف السياسي والقضية الوطنية لكن كمال أصبح يشعر أن كل شيء يبدو لا قيمة له وكلما واجه هذا الشك في حياته زعزعه القلق، لكن ليس هناك موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق إن إيمانه بالشعب بدأ يعتريه الشك "إن قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطُغيّان التي تترصد سبيل نهضتهم اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقي وأول أمس محمد محمود وتلك السلسلة المشؤومة من الطغاة التي تمتد إلى ما قبل التاريخ كل ابن كلب غرته قوّته يزعم لنا أنه الوصي وأن الشعب قاصر"(٥٧).

ومن خلال هذا التسجيل النفسي والتاريخي يتخذ نجيب من شخصية بطله "كمال" إحدى اللافتات المضيئة التي تشير إلى منعطفات الدروب الاتجاهية بالنسبة إلى جيل بدأت خطواته وهي ثابتة ثم انتهت وهي

متعثرة؛ لأن رصيده من أسلحة المقاومة لم يكن متكافئًا مع رصيد أعدائه من أسلحة القمع والإرهاب.

إنَّ كمال في حاجة إلى الإيمان المقرون بالعمل حتى يصل إلى درجة التوازن الوجداني والعقلي وهذا الإيمان الضائع هو لُبّ غربة كمال لكن بما يؤمن. هذه هى المشكلة، إنه لا يبحث عن اليقين الميتافيزيقي، فهو في شك من الدين لكن وجد أحمد وعبد المنعم شوكت طريقهما إلى اليمين واليسار أو الانتماء للدين والانعطاف نحو الاشتراكية العملية فلسفة وسلوكًا لكن كمال الشكاك في منفاه الفكري كيف يخلق لنفسه هذا الإيمان وهو المتمرد الحائر إلى الأبد "كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه وإن كان عقله لا يدري أين المفر، عقله يقول: أحيانًا حقوق الإنسان وحينًا آخر يقول: "بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلا قطيع" وربما قال: "الشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار؟"(٥٨).

ويقول رياض: "إن الإيمان إرادة لا علم" ما معنى هذا إنها تلميحة إلى افتقار كمال القدرة على الانتقال من النظر إلى العمل، من القول إلى الفعل، من الفكر إلى الواقع، لكن كمال لم يرزق ذلك التزاوج العظيم بين الآراء والأفعال الذي وهبه أخوه فهمي فهو يقضي حياته نهبًا لشتى العواطف المتضاربة والواقع أن هذا التمزق وإن كان الفشل العاطفي هو السبب الأصيل للوقوع فريسة إلا أننا نجد بدايات الحيرة في موقفه الأول وهو حدث صغير إذ يسب الإنجليز في البيت ويصادق جنودهم في الشارع، ثم تكررت حادث الهرب من رصاص المعتدين مرتين في حياته لجأ في المرة الأولى إلى دكان بائع البسبوسة ولجأ في المرة الثانية إلى مقهى ظل فيه ساعات حتى زال خطر الموت، فخرج من المقهى وهو يحاول أن يتذكر اسم بائع البسبوسة

الذي لجأ إليه وهو طفل معنى هذا أن كمال كان من يومه نهبًا لشتى العواطف المتضاربة"[٥٩].

يقول له رياض: "إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مُزعزع الأركان عبث وقبض الريح، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس، وملل وسقم إني أرثى لك ويضيف قائلًا إنك توحي لي بشخصية الرجل الشرقي الحائر بين الشرق والغرب، الذي دار حول نفسه كثيرًا حتى أصابه الدوَّار[٦٠] ويناجي كمال نفسه: "يتكلم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن يعرف عايدة؟ قد تكون السعادة متعددة الجوانب"[٦١].

وكمال يقول: "إنه من المستحسن دائمًا أن يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام على ذلك، فالتصوف هروب كما أن الإيمان السلبي بالعلم هروب، وإذن فلا بد من عمل، ولا بد للعمل من إيمان، والمسألة هى كيف نخلق لأنفسنا إيمانًا جديرًا بالحياة؟"[٦٢] وقال له أحمد شوكت قبل نقله إلى المعتقل، وهو في سجن القسم: إن الحياة عمل وزواج وواجب إنساني وما ذلك الواجب الإنساني العام إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلًا في تطورها نحو المثل الأعلى، وقد فهم كمال هذا القول على أنه دعوة للإيمان بالعمل الإيجابي أيًا كان مشربه. أدرك أنه من العسير أن يعيش المرء في قمقم أنانيته ثم يكون سعيدًا في الوقت نفسه، ظلت مشكلة الإيمان الإيجابي المتمثل في العمل الثوري قائمة بدون حلّ "لا تسخر مني إن مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حلّ، وغاية ما أستطيع أن أعزي به نفسي هو أن المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من عمري إلا ثلاثة أيام"[٦٣].

إن كمال يعزي نفسه بأن المعركة لم تنته بعد وعلى حين قطع أحمد العقدة التي تشلّ خالـه كمال عن الحركة والعمل فقد قرر النزول إلى المعركة، إذ إنه يؤمن بالحياة والناس، ويرى نفسه ملزمًا بالثوة على مثلهم ما دام يعتقد أنها الحق، إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية(٦٤) ويناجي كمال نفسه وهو يعلق على قول أحمد: "وقد تسأل ما الحق؟ وما الباطل؟ ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبي بالعلم، فهل تستطيع أن تكون مدرسًا مثاليًا وزوجًا مثاليًا وثائرًا أبديًّا"(٦٥).

ونسى كمال أن معايشة التجربة شيء، ومراقبتها من الخارج شيء آخر، وهذا هو ما عجز عن الوصول إليه رغم وعيه الإنساني به، إن أحمد يقول: "إن الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن، ولكن منقضي عليه بالمتاعب أو بالموت نفسه بما هو إنسان وسواء أقضي عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم، هو ما يتراءى لعينيه في أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطر الباهر إلا أنه الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان الواعي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام، وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هى أنه يستطيع أن يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه"(٦٦) وهذا المفهوم عن الواجب الإنساني لا يغيب عن كمال، وإنما يصاب بالحصر عندما يعجز عن أن يتحول من الفكر إلى الواقع العملي.

البطل بين التمرد الميتافيزيقي والإيمان بالعلم:

وتبدأ أزمة كمال الفكرية بتمرده على رغبة أبيه في إلحاقه بمدرسة الحقوق وإصراره على الالتحاق بمدرسة المعلمين[٦٧] حيث يجد فيها متنفسًا لأشواقه الروحية والفكرية التي خلق فيها وهو يقرأ الفلسفة، فهو يؤمن بأن حياة تكرس للفكر لهي أجلّ حياة، وكان يعيش بقلبه في عالم المثال، كما ينعكس على صفحات الكتب[٦٨]، ولم يلبث أن نشب صراع في نفس كمال بين التراث الديني وبين ما تلقاه وحصله من ثمار الفلسفة العلمية الحديثة، في دوامة هذه الأزمة عاش كمال وقلبه مفعم بالألم "ألم الحب الخائب وألم الشك وألم العقيدة المتحضرة، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ولكن كيف يسع عاقلًا أن يتنكر للعلم[٦٩] لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التي أرسلها المعري والخيَّام حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية، لقد تعذب كثيرًا، ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذابًا وخداعًا، لن تعبث بي الأوهام بعد اليوم، ونور الله أليس هو نور الحقيقة، فما الإيمان الحقيقي إلا العلم، ولو بعث الأنبياء ما اختار سوى العلم رسالة لهم"[٧٠].

سأله إسماعيل لطيف: "خبرني ألازلت تصلي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟ لم أعد من المصلين، ولن أكون من الصائمين"[٧١]، ويعلق إسماعيل كنت متدينًا عميقًا، وأنت الآن ملحد عنيف، دائمًا عنيف، قلق كأنك مسؤول عن البشرية، الحياة أبسط من هذا كله، مركز في الحكومة يرضي النفس، ويهيئ مستوى لا بأس به من المعيشة استمتاع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم، استمساك بقدر من القوة والاعتداد

عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز فإذا وافقت هذه الحياة الدين فبها ونعمت، وإلا فذنبه على جنبه" لكن هذا القول يقع من نفس كمال الغريب، موقعًا غريبًا فيناجي نفسه: "الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملاذي، ولكن ارتقاء الجبال الوعرة سيظل مطلبي، عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان، وإلا فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها"(٧٢).

ويأتي كمال ليحمل على كتفيه الهموم الفكرية لجيله، وهو هنا يعبر عن الأزمة الفكرية للواقع المصري، لكن ليس هذا كافيًا لتفسير الانقلاب الديني أو الميتافيزيقي في حياة كمال الروحية، بل هناك عوامل نفسية تعمق من فهمنا لعلّة هذا التحول الخطير، وتلتقي في الوقت نفسه، مع التيار العلماني الذي بدأ يزحف على الحياة العقلية في مصر.

وقد تبيّن لنا –من خلال معايشتنا لكمال– مدى عمق الجذر العاطفي المتغلغل في حنايا قلب كمال، وقد كان ذلك من العوامل التي أحدثت الانقلاب الديني عنده، بدءًا من ضمور هذا الشعور الديني، ثم ذبوله وموته تمامًا في قلب كمال، وإحلال "العلم" بديلًا يقوم بالوظيفة التي كان يقوم بها "الدين".

يصنع نجيب محفوظ تناقضًا زائفًا بين الدين والعلم بحيث يجعل كلًا منهما نقيضًا للآخر، فالدين عنده مُرتبط بالخرافة والجهل –والعلم كما يدَّعي نجيب محفوظ– مضادّ ومُعاكس ومواجه للدين، والحقيقة أنَّ العلم أصلٌ من أصول الدين حثَّ عليه في كثير من آيات القرآن والأحاديث الشريفة، فهو نقيضٌ زائف يهدف من وراءه نجيب محفوظ إلى تشويه

صورة الدين، كما تبرز آراؤه معبرة عن فكره مستترًا خلف شخصيات روايته.

ومعلوم أن تطور الشعور الديني يتم في إطار تطور نفسيّة الفرد، ولا ينفصل بأي حال عن تطور الشخصية من حيث هي قوة ديناميكية في مجتمع ينطوي على مجموعة من القوى الديناميكية المتشابكة(٧٣) وكمال ليس شابًا عاديًا بل ممن يهيمون بالفكر وبالنظر في الأشياء وهو ممن يتطلعون إلى الوصول إلى التوازن الوجداني والعقلي بين ذواتهم وبين العالم الخارجي.

والمرجح أن كمال لم ينقلب في إلحاده إلى الإنكار التامّ لوجود الله، إذ إنه بقي نهبًا لصراعات متضاربة بين التمرد الميتافيزيقي والإيمان بالعلم، ثم الشك في العلم والفلسفة معًا، بل أمعن في شكه في كل شيء حتى في ماهيّة الحياة، وغايتها، وكما أن للخبرات الطفلية الأليمة والأحداث الراهنة أثرها في تشكيك المؤمن في عقائده وانحيازه إلى النزعة اللادينية، فإن للثقافة العلمية والفلسفة أثرًا لا يقل شأنًا في إثارة الشكوك، فهي قد توفر للمراهق من المثل العليا ودروب اليقين ما يستعيض به عن مُثُلْ أخرى.

ولكننا نلاحظ أن التحول عن الدين لا يسير بسرعة التقدم العلمي، إنما لكل منها إيقاعه الخاص، إن الآراء العلمية تغزو أول ما تغزو عقل المرء، ولا تتغلغل في كيانه الانفعالي إلا بعد وقت ليس بالقليل، وحيث إن للشعور الديني لدى الفرد تاريخًا طويلًا، يتغلغل في حياته، وجذوره تتشبث بأعماق نفسه، وعلى المستوى العلمي ما أن يقع على مبدأ علمي أو مذهب فلسفي يرضي طلعته ونزعته إلى التحرر حتى يتحمس له تحمسًا

هو أقرب إلى التعصب منه إلى الإقناع العلمي الرزين، فإن كان يفيد من الثقافة العلمية الموضوعية أو الأفكار الفلسفية المتحررة، فهو لا يفيد اتجاهًا موضوعيًا أو منطقيًا في التفكير، بل يفيد منها ما يؤيد طموحه إلى عقيدة مطلقة، ورأي نهائي "ليس بخافٍ علينا انتشار كتب وآراء بعينها بين جمهور المراهقين في الشطر الأخير من المراهقة، من أمثال دارون، ونيتشه، وماركس، وليس بخاف كذلك، كيف أن كتابات هؤلاء كانت لدى بعض المراهقين بمثابة كتب مقدسة تحتل في نفوسهم ما تحتله الكتب المساوية لدى المؤمنين من مكانة رفيعة"(٧٤). هذا التحليل يلقي الضوء على الانقلاب الديني عند كمال.

سأله رياض: "تتبعت مقالاتك منذ سنوات فأدركت أنك مؤرخ، بيد أنني حاولت عبثًا أن أهتدي إلى موقفك أنت مما تكتب، وأي فلسفة تنتهي إليها..."

قال كمال: "إني سائح في متحف لا أملك فيه شيئًا، مؤرخ فحسب، لا أدري أين أقف ...

فقال له رياض ... "ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هذا قال كمال: كان لي إيماني الديني، ثم إيماني بالحقيقة أذكر أنك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة كان حماسًا صادقًا ثم لم ألبث أن حركت رأسي مرتابًا لعلها الفلسفة العقلية، ثم لم ألبث أن حركت رأسي مرتابًا، الفلسفات قصور جميلة هادئة، ولكنها لا تصلح للسُكْنَى هنالك العلم فلعله نجا من شكك إنه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها الغريبة، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممن

تراجعوا عن ادعاء الحقيقة فلم ألبث أن حركت رأسي مرتابًا، فابتسم رياض قلدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول: "حتى المغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذني ودار رأسي وما زال يدور في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أي شيء؟ إني أحيانًا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر"(٧٥).

ومن عجب أن كمال وهو الذي كان يتساءل كيف يسع عاقلًا أن يتنكر للعلم وكان العلم وقودًا لشكِّه مثل الدين والفلسفة المادية، ويبدو أن مفهوم الدين والعلم، وهذا المفهوم جاء -على الأرجح- متأثرًا بميراث الحضارة الأوروبية والفكرة البورجوازية الأوروبية عن العلم والدين إذ كان الدين المسيحي في هذه الحضارة أقرب إلى الأسطورة والغيبيات والأسرار التي تند عن العقل، وكان العلم فيها حاملًا لواء التقدم، وواضعًا أسس العقلانية والتجريب العلمي، ومن ثم كان التعارض بينه وبين التراث الديني المسيحي المنحدر من العصور الوسطى، ومن هنا ارتبطت البورجوازية -بالنسبة له- بكل ما هو مُعوق عن التقدم؛ ولأنه من جانب آخر يمثل سلطة الكنيسة، فالثورة على الدين ثورة على الكنيسة وهيمنتها على العقل الأوروبي.

مفهوم كمال عن العلم والدين، وفق ما سبق مفهوم بورجوازي أوروبي أما في الحضارات الشرقية القديمة فلم يكن هناك تعارض بين الدين والعلم بل كان الدين أساس العلم باعثًا على البحث العلمي وكان العلم هو المحقق لغايات الدين كما يدل على ذلك حتى في تراثنا القديم لا يوجد تعارض بين الدين والعلم(٧٦).

وهذه المراحل التي مر بها كمال إلى أن وصل إلى قمة غربته هى محاولة لقهر العزلة، يقول برديائيف: "إن اشتياق الإنسان إلى المعرفة تعبير عن محاولته للتغلب على العزلة، وطلب المعرفة ينطوي على اشتياق للذات الأخرى، وللآخرين، وينطوي على امتداد غير عادي من الذات والوعي"(٧٧).

ويقول عبد العزيز مخاطبًا كمال:

"أنت أعزب في فكرك كما أنت أعزب في حياتك، وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبتُه نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح، أم أن الاثنين نتيجة لشيء ثالث(٧٨). هذه الملاحظة أشبه بالميكروفيلم لحياة كمال التي عشناها معه، فالفكر الأعزب والحياة العزباء وجهان لحقيقة واحدة هى "الاغتراب" وهي ميكروفيلم نرى من خلاله المنحنى الشخصي لكمال وما طرأ عليه، وعلى المجتمع المصري من تغيُّر في الفكر والوجدان والسياسة والشعور الطبقي لقد هزم كمال في صراعه الطبقي ضد عايدة، وهزم الشعب بعد وفاة سعد زغلول – في صراعه القومي ضد الإنجليز والسراي والبورجوازية الزراعية الكبيرة، ثم رأينا تفجُّر أزمته العاطفية والعقلية تبعًا لذلك، ومن جانب آخر تكشفت لكمال حقائق أصابته بعزوف باطني عن المشاركة الإنسانية في مجتمع ساده التخلف الاجتماعي والانحلال الخلقي. لقد أدرك أن الثقافة لا كرامة لها في بلده.

خاتمة :

إن مشكلة اغتراب البطل في ثلاثية نجيب محفوظ –وهي في الحق مشكلة كل مثقف يعي ذاته ولا يكتفي بالوعي بل يحاول خلق هذه الذات– تتجسد في "القلق" قلق المثقفين وبداهة لا يمكن النظر إلى جذور أزمة المثقفين إلا من خلال الواقع التاريخي المعاصر، باعتبارهم ينتمون إلى دول نامية تحررت من تبعية دول مستعمرة تحررًا سياسيًّا ولا تزال تعاني من التبعية الاقتصادية، فما تأثير هذا الواقع الاقتصادي الاجتماعي الهابط على المثقف أو على الفرد عمومًا ووضعه الاجتماعي، وعلى طبيعة موقفه من العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمعه؟ بم ينبئ هؤلاء الأبطال عن واقعهم المادي أو واقع مجتمعهم؟

والطريق طويل وشاق لإعادة صياغة المجتمع بما يكفل تحقيق التوازن والتحرر من التبعية السياسية والاقتصادية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وهو يدرك أنه غريب في داره وأن الاستقلال السياسي ليس له مضمون ما دامت بلاده تابعة لدول أخرى تخطط لها أسلوب حياتها في تفكيرها وأيديولوجيتها، كما أدرك المثقف أن الديمقراطية ليس لها ثقل مادي ملموس، ما لم تقترن بإجراءات رفع المستوى الثقافي والاقتصادي للشعب.

وهذه الدول الحديثة العهد بالاستقلال –ومنها مصر– دول متخلفة اقتصاديًا ولا يبعد اقتصادها كثيرًا عن الاقتصاد القبل رأسمالي أي الإقطاعي[٧٩] وفي كثير منها لا يبعد النظام السياسي في جوهره –إن لم يكن في شكله– عن النظام الإقطاعي، وقد حدد ذلك طبيعة العلاقات الاجتماعية التي يعد الفرد إفرازًا اجتماعيًا لها، وهنا تبرز وظيفة المثقف

في مجتمعه، وهو الإنسان ذو الاهتمامات بالقضايا الاجتماعية العامة لمجتمعه والذي يحدد لنفسه منها موقفًا.

إن العجز المادي، والاستقلال الشكلي، والتزييف السياسي كل ذلك دفع بنفوس المصريين إلى الاحتراق في أتون الاغتراب وشَعَر المصري نتيجة لاستلاب المستعمر لحريته السياسية ولثروته الاقتصادية بأنه غريب في وطنه.

ومما زاد من قلق المثقف المصري وتمزقه أنه كان يقاوم المستعمر بقيم أجنبيه؛ لأنه كان يرغب في أن يدخل بلاده في دائرة الحضارة الحديثة ذات الصبغة الأوروبية الغالبة ومن هنا نشأ قلق من تفكيره في وجود فجوة ثقافية بينه وبين الشعوب التي يطمح إليها وإحساسه الأليم بأنه تابع، وأنه مهما كدّ واجتهد لا يمكن أن يصل إلى المستوى الثقافي الذي وصل إليه المستعمر "وقد حاول المثقف أن يعالج شعوره بالنقص، ولكنه بدلًا من أن يكون ذاتيًا في محاولته، قلد المستعمر في طريقة حياته، وأسلوب تفكيره، حتى يبلغ مستواه فزهدت قيمته، ومن هنا اتسمت الحياة بالتغريب"(٨٠).

ولقد خلفت المسافة الثقافية الواسعة التي تفصل بين المثقف وجماهير الشعب آفة الغرور إذ يقيس نفسه عادة بالمجموع الذي يعيش فيه، إنه يعتقد أنه وصل إلى أعلى درجة من الكفاية والمعرفة.

وقدم نجيب محفوظ بطل الثلاثية كمال عبد الجواد على أنه البطل الإنساني المشغول بالهمّ العام المغترب داخل وطنه، وهذا المفهوم لا يغفل القيم الفكرية التي عبّر عنها كمال –والتي تعتصم بالعقل والعلم– وتدعو إلى العقلانية، هذه القيم آتت أُكُلها في حينها في الجيل التالي لكمال، جيل أحمد شوكت، وهذا المفهوم لا يقتصر على النظر إلى القيم الفكرية الواعدة

بل يتضمن التعبير عن مشكلة الإنسان الروحية وبحثه الدائب عن التوازن الوجداني والعقلي، وهذا المفهوم يخلق تواصلًا بيننا وبين البطل "كمال"؛ لأننا نشعر أن الأزمة الفكرية والوجدانية بعض من بليتنا وكمال هنا تأتي بطولته بالمعنى التقدمي الثوري في تمهيده وتبشيره بقيم الغد.

الهـــوامـــــش

(١) جريدة أخبار الأدب: العدد ٤٢٦، الأحد ٩ سبتمبر ٢٠٠١م

(٢) قصـر الشـوق: نجيـب محفـوظ، مكتبـة مصـر، ط٥، ١٩٦٢م، ص٣٥٥.

(٣) ثلاثيـة محفـوظ: الأب ج. جومييـه، ترجمـة د. نظمـي لوقـا، مكتبـة مصر ١٩٥٩م، ص٦٩.

(٤) نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته: ألفريد فرج، الهلال، سبتمبر ١٩٦٥م، ص٣٨.

(٥) بـين القصـرين: نجيـب محفـوظ، مكتبـة مصـر، ط٥، ١٩٦٤، ص٢٥٢.

(٦) المصدر نفسه ص١٨٠.

(٧) دراسات في الأدب العربي المُعاصر: يوسف الشاروني المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سنة ١٩٦٤م، ص٧٤.

(٨) بين القصرين: نجيب محفوظ، ص١٤٩.

(٩) دراسات في الأدب العربي المعاصر: يوسف الشاروني، ص٦٨.

(١٠) بين القصرين: نجيب محفوظ، ص١٩٩.

(١١) المصدر نفسه، ص٢١٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(١٣) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٥٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص٣٤٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص٣٤٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

(١٨) دراسات في الرواية المصرية: علي الراعي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سنة ١٩٦٤، ص٢٦٩.

(١٩) السكرية: نجيب محفوظ، مكتبة مصر، ط٥، سنة ١٩٦٤م، ص١١٨.

(٢٠) دراسات في الرواية المصرية: علي الراعي، ص٢٧١

(٢١) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٣٥١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٣٥٥.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٣٥٥.

(٢٤) دراسات في الرواية المصرية: علي الراعي، ص٢٦٢ – ٢٦٧.

(٢٥) المصدر نفسه ص٣٥٦.

(٢٦) كمال عبد الجواد اللامنتمي: ماهر حسن البطوطي، الآداب، بيروت، العدد السادس حزيران (يونيو) ١٩٦٣م، ص٣٠.

(٢٧) السُّكَريّة: نجيب محفوظ، ص٣٧١.

(٢٨) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٣٥٥.

(٢٩) العُزلة والمجتمع: برديائيف (نيقولاي)، ترجمة: فؤاد كامل، النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص٢٠٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٢١٦.

(٣٣) ماركسية القرن العشرين: روجيه جارودي، ترجمة: نزيه الحكيم، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٨٢.

(٣٤) العُزلة والمجتمع: برديائيف (نيقولاي)، ص١٢٩.

(٣٥) اللامُنتمي: كولن ولسن، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م، ص٧.

(٣٦) المصدر نفسه: ص٨.

(٣٧) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٣٩٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ص٨.

(٣٩) اللامُنتمي: كولن ولسن، ص٩٣.

(٤٠) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٤١٢.

(٤١) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٤١٠.

(٤٣) دراسات في الرواية المصرية: علي الراعي، ص٢٦٧.

(٤٤) المرجع نفسه، ص٢٦٨.

(٤٥) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٤٢٥.

(٤٦) المصدر نفسه: ص٤٢٦.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٤٢٨.

(٤٨) السُّكَريّة: نجيب محفوظ، ص١٤٦.

(٤٩) المصدر نفسه: ص٢٨٣.

(٥٠) المصدر نفسه: ص١٥٤.

(٥١) المصدر نفسه: ص٦١.

(٥٢) بين القصرين: نجيب محفوظ، ص١٧١.

(٥٣) مجلة الكاتب: العدد ٩٧ أبريل، ١٩٦٩م، ص٢٩.

(٥٤) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٢٥٣.

(٥٥) مجلة الكاتب: فؤاد أمين، عدد أبريل، ١٩٦٩م، ص١٥.

(٥٦) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٤٦٤.

(٥٧) السُّكَّريّة: نجيب محفوظ، ص٤٥.

(٥٨) المصدر نفسه: ص١٢٥.

(٥٩) المصدر نفسه: ص١٨٠.

(٦٠) المصدر نفسه: ص٢٢٧.

(٦١) المصدر نفسه: ص٢٢٧.

(٦٢) المصدر نفسه: ص٣٩١.

(٦٣) المصدر نفسه: ص٣٩٣.

(٦٤) المصدر نفسه: ص٣٩٢.

(٦٥) المصدر نفسه: ص٣٩٥.

(٦٦) المصدر نفسه: ص٣٨٥.

(٦٧) قصر الشوق: نجيب محفوظ، ص٥٤.

(٦٨) المصدر نفسه: ص٥٦.

(٦٩) المصدر نفسه: ص٣٧١.

(٧٠) المصدر نفسه: ص٣٧٥.

(٧١) المصدر نفسه: ص٣٨٠.

(٧٢) المصدر نفسه: ص٣٨٦.

(٧٣) تطوّر الشعر الديني عند الطفل والمراهق: عبد المنعم المليجي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥م، ص٣١٨.

(٧٤) المصدر نفسه: ص٢٩٧.

(٧٥) السكرية: نجيب محفوظ، ١٢٤ – ١٢٦.

(٧٦) التجديد والترديد في الفكر الديني: حسن حنفي، مجلة الفكر المُعاصر، عدد أبريل، ١٩٧٠م، ص٣٣ – ٣٤.

(٧٧) العُزلة والمجتمع: برديائيف (نيقولاي)، ص١٢١.

(٧٨) السُّكَريّة: ص١٢٦.

(٧٩) الديمقراطية والدوَّل الحديثة الاستقلال: جورج أبي صعب، مجلة حوار، العدد الثاني، يناير، ١٩٦٣م، ص٦٠.

(٨٠) تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، حلمي علي مرزوق، دار المعارف، ط١، ١٩٦٦، ص١٥.